حول الوضع الأدبي في مصر

ضرورة ثقافية عاجلة

بقلم رجاء النقاش

بالخبز والعقيدة يحيا الانسان .. ولا غنى للحياة الانسانية عن عنصر من هذين العنصرين ، انهما وجهان لعملة واحدة هي : الحياة الانسانية المتحضرة .. وفراغ الحياة من العقيدة لا يقل خطرا عن انعدام الدعائم المادية لحياة الانسان ، ولذلك فالانسان منذ وجوده الاول لم يكن يبحث عن الطعام وحسب ولكنه كان يبحث ايضا عن شيء يؤمن به ، لقد كان يعبد النار احيانا ، وكان يعبد الشمس احيانا اخرى ، وفي حالات ثالثةكان يعبد آلهة من صنعه كما كان الامر في الحضارة الاغريقية ، ثم جاء العصر الديني بمراحله المتعددة وافكاره المعروفة ...

لا بد للانسان من عقيدة تبرر الوجود وتفسره وتصنع هدفا للحياة ، وحتى في المستويات الاجتماعية التي ينقصها الوعي والثقافة بمعناهما الاصطلاحي المعروف ... حتى في هذه المستويات لا يستغني الانسان عن العقيدة ، بل انه يتمسك بها في صورة دين او اسطورة او تقليد اجتماعي موروث .. وتمسك الانسان الجاهل بعقائده يصل الى حد عنيف كثيرا ما يتميز بالكثافة او الصلابة او الجمود .

وخلال المراحل المختلفة للحضارات الانسانية كانت العقيدة السياسية جزءا هاما من عقائد الانسان ، بل ان الجانب السياسي هو على الدوام جانب ملازم لشتى العقائد ، حتى ولو كانت هذه العقائد دينية ..ولنضرب مثلا بالعقيدة الاسلامية ، فلقد كان الجانب السياسي فيها جانبا جوهريا ايجابيا ، وكذلك العقيدة المسيحية التي انبثق عنها كثير من النظم السياسية في اوروبا في القرون الوسطى ، وحتى قيام الثورة الفرنسية كان للمسيحية دورها في الانظمة السياسية لاوربا .. هذا هو ما نستطيع ان نخرج به من التفكير السريع في تاريخ العقائد الانسانية ومن التفكير في تاريخ العقيدة السياسية بالذات ، واذا كانت العقيدة السياسية في العصور القديمة ذات اهمية رئيسية كبرى ، بل ان الثقافة السياسية اليوم تعتبر الاساس الرئيسي لكل لون آخر من الوان الثقافة ، فقد اصبحت العقيدة السياسية تعني فكرة عن الانسان وتعني فكرة عن العالم وتعني فكرة عن المجتمع .. ولناخذ مثالا : ... فصاحب العقيدة السياسية التي تعتمد على فكرة الاشتراكية يقيم نظرته للانسان على اساس من الجهد الذي يبذله ذلك الانسان ، وعلى اساس من مفاهيم اخرى كالمساواة والحرية والقضاء على عناصر التفرقة كالعنصريةوالطائفية وغير ذلك .. اما صاحب العقيدة التي تعتمد على فكرة الرأسمالية فينظر للانسان نظرة مختلفة تماما ، انه يرى الانسان كالسلعة تخضع لقيم الشراء والامتلاك ، ويرى ان التفرقة بين الناس فكرة سليمة لا اعتراض عليها.. ويوجد نفس الاختلاف بين اصحاب تلك العقائد حول النظم الاجتماعية، وتفسير الحياة والعالم ونوع المعرفة الانسانية ..

والمجتمع السليم هو الذي تحركه عقيدة محددة يؤمن بها ، ويدافع عنها وينقد نفسه وحياته على اساسها ... وفي العصر الحديث لا يمكن ان تقوم هذه العقيدة على اساس ديني او اساس اخلاقي او اساس اسطوري ... فقد تكون هذه الاسس ذات فائدة واهمية ولكن روح العصر لا يمكن ان تسمح بقيام هذه العقائد على واحد من تلك الاسس السابقة وحسب ، بل ان جوهر العقائد العصرية لا بد ان يرتبط بالسياسة في معناها الجديد ، معناها الواسع ... فقد اصبح المجتمع العصري يواجه كل يوم انواعا من المشاكل لا تتصل اتصالا مباشرا بالاخلاق او الاديان ،ولا يمكن معالجتها الا على مستوى سياسي ، كما أن الاوضاع الاجتماعية اليوم اصبحت تعكس نفسها في اوضاع سياسية ، وأصبح التغير الاجتماعي لا يتم الا اذا سبقه تغير سياسي ، والعصر الحديث كما هو واضح من اكثر العصور تعرضا للتغيرات الاجتماعية ، ومن اكثرها احتياجا الى هذه التغيرات ، ولا يمكن ان تتم هذه التغيرات المطلوبة دون تغيرات سابقة في العقائد السياسية والنظم السياسية ايضا .

واذا كان عصرنا من عصور التغير الجوهرية في حياة المجتمعات ، فان هذه القاعدة تنطبق على المجتمعات المتخلفة اكثر من انطباقها على المجتمعات المتحضرة المتقدمة.ان المجتمع المتخلففي شتى جوانبه يستطيع ان يرسم صورة محددة لتقدمه وارتقائه على ضوء النماذج الاجتماعية المتقدمة والموجودة بالفعل ، اما هذه المجتمعات المتقدمة فان طريقها الى مزيد من التقدم باحداث تغييرات جديدة في بنائها لا يعتمد الا على مزيد من التجربة .. فالتجربة بالنسبة لهذه المجتمعات هي التي تحددامكانية التقدم ، والتجربة بالطبع لا تقدم من البدء نتائج محددة واضحة ، بل تقدم هذه النتائج بعد المرور بسلسلة من الخطا والصواب .

ومجتمعنا العربي من المجتمعات المتخلفة التي تحتاج الى تغييرات جوهرية محددة الخطوط والملامح ، والفرق بين الصورة التي نريدها للمجتمع العربي في شتى اجزائه والصورة القائمة بالفعل فرق كبير ... وان كانت هناك دول عربية قد بدأت الطريق الى تحقيق هذه الصورة المنشودة ، وعلى رأس هذه الدول : مصر .

وقد كان من الضروري منذ قيام ثورة سنة ١٩٥٢ ان يصل الوعي السياسي في مصر الى افكار جديدة عن الديموقراطية والحرية والنضال والتنظيم الاجتماعي .. لقد كان قيام الثورة – التي اتضحت خطوطها يوما بعد يوم من خلال التجارب العديدة التي خاضتها – تعبيرا عن ضرورة قيام شكل جديد للمجتمع يختلف عن الشكل القديم الذي اصابه العفن والاضطراب ، وفي المجتمع القديم السابق على الثورة كانت الاحزاب هي التي تتحكم في شكل الوعي السياسي ، وكانت هذهالاحزاب بلجانها وصحفها تسيطر على افكار الناس وحياتهم ... لقد كانت تلك اللجان والصحف هي الوسيلة الوحيدة للتربية السياسية في صفوف الشعب ، ولكن الاحزاب التي كانت تتحكم في الحياة السياسية المصرية لم تكن تؤمن حقا بالشعب ، ولم تكن تعبر عنه تعبيرا صحيحا .. كانت هناك احزاب منحازة انحيازا صريحا للقوى المعادية للشعب مثل الحزب « السعدي » الذي كان يناصر القصر مناصرة تامة ، وحزب « الاحرار الدستوريين » الذي يضم الاقطاعيين ويعبر عن مصالحهم .. وكان هناك احزاب اخرى ضلت الطريق لاسباب مختلفة ، فحزب « الوفد » الذي كان اكبر الاحزاب شعبية تسللت الى قيادته عناصر اقطاعية ، وعناصر انتهازية مترددة ، واراد ان يجمع بين صفوفه كلالاتجاهات والافكار ، وان يوفق بين مصالح قادته ومصالح القصر من جانب وبين مصالح الشعبمن جانب آخر ، وكان هناك « الاخوان المسلمون » ، وقد اخطأت هذه الجماعة في اثارتها للنزعة الدينية لدى اتباعها العديدين من ابناء الشعب مع توجيه هذه النزعة توجيها تعصبيا ، بالاضافة الى عجز كامل عن وضع

الحلول والاجابات السليمة للمشاكل التي كانت تعرض للمجتمع بشدة وعنف آنذاك .. وبذلك فقدت الاحزاب فعاليتها الصحيحة ، واضطرب الوعي السياسي لدى الشعب ، وانعدمت تلك العقدة التي تجمع شمله وتوحد اهدافه وتنظم علاقاته وقواه المختلفة .. تلك العقيدة التي يمكن ان يقيس بها الامور ويحكم بها على الاشياء ، وتملأ فراغه الروحي مع توجيهه بصورة منظمة في حياته العملية .

من هنا كانت الاحزاب ضمن المؤسسات العفنة التي كان على الثورة ان تقضي عليها لتمضي في طريق الوعي السياسي بما يلائم التطورات الجديدة ، وقد قضت الثورة عليها بالفعل ، ومن الجدير بالملاحظة في هذا المجال ان هذه الاحزاب لم تترك فراغا في نفوس الناس ، وبعد مرور وقت قصير كانت هذه الاحزاب على اختلافها قد اصبحت اثرا خافتا ضئيل الشأن ليس له في العقول والنفوس ذكرى كبيرة .. ولا شك ان هذا يدل دلالة واضحة على أن هذه الاحزاب كانت منظمات متلائمة تماما مع الشكل الاجتماعي القديم الذي انهار بقيام الثورة ، لقد كانت «غرفة» في عمارة ، وانهارت هذه العمارة فكان لا بد ان تنهار معها .. لم يكن لتنظيمات تلك الاحزاب قوة جذرية ، ولم يكن لافكارها عمق بعيد يبقى في الاذهان والوجدانات .. بل كانت في حقيقتها مؤسسات شكلية تتنافس على الحكم والسلطة ، وكانت في احسن صورها الشعبية لا تنظر للشعب الا كما ينظر السيد الى كلبه .. مهما اعطاه وقدم اليه فهو في نظر ذلك السيد « كلب »وضيع الشأن .

والواقع ان الفراغ العقائدي كان موجودا ايام الاحزاب ، ولكن قيام الثورة وانهيار تلك الاحزاب ، ادى الى ظهور هذا الفراغ بشكل عنيف .. ان الشعوب في العصر الحديث في حاجة الى تنظيمات اجتماعية تشرف على تربيتها السياسية ، وقد انعدمت التنظيمات ، واصبحت قيادة الوعي السياسي مركزة بشكل نظري في الصحف والاذاعة ، ولا يمكن ان تكفي هاتان المؤسستان في مجال التربية السياسية ، ولا يمكن لهما ان تمتدا الى عروق المجتمع في شتى جوانبه وابعاده لتنشر هذا الوعي السياسي وتدفعه الى مسايرة المعركة التي تعيشها البلاد ، فهناك الذين لا يقرأون وهناك الذين تدفعهم مشاكلهم الخاصة الى الانعزال التام عن الاتجاه الرئيسي لمجتمعهم ، وتنتشر هذه الظواهر انتشارا كبيرا واسعا كلما بعدنا عن مراكز الوعي في العاصمة والمدن الكبرى .. معنى هذا ان الريف الذي يكون الجزء الاكبر من مصر ، والمدن الصغيرة .. كل هذه المناطق تعيش في خمول سياسي، وانعزال عن الحركة الرئيسية للمجتمع الجديد.

ولكن الشعب في مصر قد استغنى مؤقتا عن وجود تنظيمات سياسية ترفع وعيه وتمده بالحقيقة التي تفسر له الاشياء وتملأ فراغ نفسه بصورة سليمة .. استغنى عن هذه التنظيمات طيلة السنوات الماضية منذ قيام الثورة حتى اليوم وذلك تحت تأثير الاحداث الكبرى التي خاضتها مصر ، لقد كان لعنف هذه الاحداث اثرها في انشغال النفوس والاذهان عن التماس عقيدة كبرى تستقر معالمها في الذهن والوجدان .. ولكن هذه الحالة بالطبع هي حالة عارضة غير التي مر بها مستعدا للصراع والنضال كلما دعت معركة الى ذلك ، وقد كسب الشعب من هذا الشعور لونا من الاستقرار والتطلع الى شيء جديد ، كما لم يعد لديه حس الخوف من المفاجآت ، وقد ادى هذا الوضع الى ظهور الفراغ العقائدي بصورة عنيفة ، لقد اصبح الشعب في حاجة الى عقيدة سياسية تقدم له تفسيرا للظواهر ومقياسا يزن به الامور .. عقيدة لها وظيفتها الاجتماعية ... عقيدة تخلق علاقة بين المواطنين .. وتسمو على المصلحة الشخصية للافراد ، ويكون لها من « القيمة الاجتماعية » ما يسمح للمواطن بنقد الوقائع والاعمال باسمها ، ولا يمكن لهذه العقيدة ان تكون فكرية نظرية تدعو اليها الصحف والاذاعة ، فلا بد لهذه العقيدة حتى تضمن فعاليتها ان تتبلور في منظمات اجتماعية تضم المواطنين وتمارس تربيتهم من الناحية السياسية ورفع وعيهم وخلق الدوافع لتحويل مبادىء تلك العقيدة الى عمل واقعي في السلوك الشخصي والتعامل بين الناس او السيطرة والاشراف على مؤسسة او جهاز يمس الدولة الدولة والمواطنين.

لا بد من وجود هذه المنظمات الاجتماعية ، التي يمثلها في العالم الرأسمالي : الاحزاب المختلفة ، وتمثلها في الدول الاشتراكية : منظمات الحزب الاشتراكي الواحد ، فعن طريق المنظمات يمكن للعقيدة السياسية ان تجد قوة تبعث لها الحياة في نفوس الناس وفي حياتهم العامة ، ولا يمكن ان يعيش شعب من الشعوب كما تعيش المنظمات العسكرية ، اي قيادة تملك الامر وجنود لا يملكون الا الطاعة ، اذ لا بد للشعوب التي تلتمس التقدم والتطور من عقيدة تساعدها على هذا التطور ، على ان هذه العقيدة لا تفرض عليه فرضا ، بل على العكس انها تكتسب مزيدا من التفصيلات والاضافات الجديدة عن طريق الشعب نفسه ، وبذلك يجد الشعب في هذه العقيدة ما يعبر تعبيرا حقيقيا عنه ، وما يساعده في مواجهة مشكلاته الفكرية .

ولقد كان الشكل التنظيمي الذي يمثل عقيدتنا السياسية بعد دستور سنة ١٩٥٦ هو : الاتحاد القومي .. ذلك الاتحاد الذي يشبه تماما فكرة الحزب الواحد ، والمفروض انه سيشمل الشعب كله ضمن تنظيماته ..

والاتحاد القومي في الحقيقة هو الضرورة الثقافية العاجلة بالنسبة لحياة الشعب في مصر ، فلا بد لهذا الاتحاد ان يتم وأن تتبلور منظماته المختلفة .. ان عقيدتنا الجديدة تدور حول ثلاث افكار رئيسة هي : الاشتراكية والقومية العربية والتحرر السياسي الكامل .. ولكن هذه الافكار الرئيسية هي الدائرة العامة للعقيدة ، ولن يكون لهذه الدائرة العامة قيمة كبيرة الا اذا ترجمت تفصيلات دقيقة متصلة بالسلوك والتعامل وفكرة الفرد عن الحياة والمجتمع ، وما لم تتحول هذه الافكار الى هذا المستوى التفصيلي الحي فلسوف يفرض لون من « العزلة » الصارمة بين الشعب والحكومة ، مهما كانت هذه الحكومة وطنية مخلصة في وطنيتها .. لا بد من بعث الافكار العامة في نفوس الناس كل لحظة ، وتربية المواطنين عن طريق احياء تلك المباديء بصورة دائمة في نفوسهم، حتى تتسرب هذه المبادي في سلوكهم وتعاملهم وتملأ نفوسهم بالحماس الدائم لشيء غير رتابة الحياة وجمودها .. ولا يمكن ان يتم هذا الا عن طريق التنظيمات السياسية الواضحة التي تجمع الناس حول افكار معينة تمثل بالنسبة لهم عقيدة فكرية كاملة .

لقد أملت علينا الظروف طيلة المدة الماضية ان نبقى بلا منظمات سياسية لها عقيدتها المحددة العميقة .. ولكننا ينبغي لنا الان ان نقاوم كل ما يمنعنا من تنظيم افكارنا ومشاعرنا حول العقيدة الجديدة التي ينبض بها روح هذا العصر بالنسبة للعرب ، ولقد صدر اخيرا قرار تكوين الاتحاد القومي .. ونحن نرجو ان يتم هذا التكوين قريبا فيشمل القرى والمدن الصغيرة والكبيرة في مصر ، ويضم المواطنين ويخلق بينهم رابطا كبيرا من العقيدة الناضجة .. هذه العقيدة تشبه «البوصلة» التي تحدد الاتجاهات ومعالم الطريق ، كما انها تصبح بمثابة ميزان يزن الامور ويحدد قيمتها .. ولا شك ان هذا الوضع سيدفع الشعب الى مزيد من العمل ، والتغلب على «الروتين» وانعدام الثقة بين المواطنين ..وسيمنح الشعب ثقافة عامة تمكنه من ان يكون على مستوى النضال العربي العصري ، وان يكون ارتباطه بهذا النضال ارتباطا ذاتيا منبثقا عن اقتناع وادراك لا عن انقياد وتبعية .

القاهرة

رجاء النقاش